تجليات الآخر في الرواية السعودية

إعداد
الباحث: د. محمد بن يحيى أبوملحة
أستاذ الأدب الحديث المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها

الملخّص:

يهدف هذا البحث إلى أن يمكّننا من فهم الآخر أكثر؛ لأنّ الفهم يجعلنا أكثر دراية بآخَرِنا (والمراد هنا الآخر الغربي). وقبل اكتشاف الآخر وفهمه فإنّ هذا البحث محاولة لاكتشاف الذات؛ فالعلاقة بين الذات والآخر علاقة وجود، بمعنى أنه لا وجود لأحدهما دون الآخر، ولا تتحدّد ملامح الذات إلا عبر تحديد ملامح الآخر. وبوصف الرواية حمّالةً للأفكار، وقادرةً على تقديم الرّؤى فإنّ هذا البحث قد اتجه إلى دراسة تجليات الآخر في المدونة الروائية السعودية من خلال عدّة نماذج روائية تجلّى فيها الآخر تجليات سلبية أو إيجابية، ومن هنا فقد انقسم البحث قسمين: المبحث الأول: تجليات الآخر السلبية. والمبحث الثاني: تجليات الآخر الإيجابية. وهذان المبحثان تسبقهما مقدمة توضح أهداف البحث، ومصطلحاته، ومخطّطه، وأبرز الدراسات السابقة، وتعقبهما خاتمة تلخص أبرز نتائجه.

الكلمات المفاتيح

الأدب الحديث، الدراسات الأدبية، الدراسات السردية، الرواية، الرواية السعودية.

Manifestations of the 'Other' in the Saudi Novel

By
Dr. Mohamed Yehya Abu Melha
Associate Professor, Department of Arabic Language & Literature

Abstract:

This paper aims to help us understand the other much better. This understanding will make us well aware of the other, and by the other, I mean the Westerners. Before exploring this other and getting to understand who this other is, the article endeavours to explore oneself. There is, indeed, an ontological correlation between oneself and the other. That is to say, one cannot exist unless contrasted by others. The art of novel is the carrier of ideology as it can present one's and others' ideas in alignment. This paper, thus, presents an investigation of the manifestations of the other in Saudi written narratives, critically presenting an evaluation of some example Saudi novels in which the other manifested himself negatively or positively. Therefore, the paper comes in two sections: Section 1 deals with the negative manifestations of the other while section 2 presents the positive manifestations of this other. In the introduction to this article, the author presents the research aims, terminology, the research outline and methodology and significant prior studies while in conclusion, the author sums up important findings.

Keywords: Modern literature, literary studies, narrative studies, novel, Saudi novel

المقدمة

حين يُطلَق مصطلح (الآخر) في دراسة ثقافية أو أدبية فإن المُرادَ به غالبًا (الآخر – الضدّ)، الذي ينتصب خصمًا للذات؛ فمنذ القرون الوسطى، منذ أن تكثفت جولات الصراع بين (الذات) –وتعني في هذا السياق العالم العربي– و(الآخر)، منذ ذلك الحين تعزّز حضور الآخر (الضدّ) في الخطاب العربي الفكري والأدبي.

وفي القرون المتأخرة كان التشكّل الأظهر للآخر (الضدّ) هو الآخر الغربي؛ و"بعد أن كان الآخر متعدّدًا أصبح غربًا"(١).

لقد تمظهرت – عبر التاريخ – علاقة الذات بالآخر الغربي في عدّة تمظهرات: ما بين صراعات، وتفاهمات، وعلاقات تتفاوت في سلميّتها حينًا، واحتوائيّتها حينًا آخر، وتصادميّتها في أحيان أخرى.

ويرى بعض الباحثين أنّ "كل فترة من فترات التاريخ الجدلي لعلاقة الشرق والغرب تفرز نمطها الصراعي، وإن لحظات التفاهم والهدنة والاعتراف تبدو نادرةً أو عابرة"(٢).

وقد مرّت تلك العلاقة بين الذات والآخر بتموّجات كثيرة، كانت في كثيرٍ من المراحل تتخذ أشدّ أشكال العنف المتمثلة في الحروب.

---

(١) حسين العودات، (**الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين**)، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م،ص ٣١.

(٢) د. محمد نور الدين أفاية، (**الغرب في المتخيل العربي**)، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ١٩٩٦م، ص ١٢.

ولا شكّ أنّ لهذه النظرة العدائية مسبّباتها الخارجية الموضوعية، ولكن هل كان هنالك مسبّبات داخلية؟

يقرّ (الطاهر لبيب) بالعوامل الخارجية التي تتمثّل في العدوان الغربي على العالم العربي سببًا لهذه النظرة العدائية من العالم العربي تجاه (الآخر) الغربي، لكنه يضيف إليها العوامل الداخلية (داخل المجتمع العربي) التي تتمثّل في التخلّف والضعف والاستبداد؛ "وهو ما يعني ضمنًا أن مجتمعًا عربيًّا تكون له القوة والمناعة ويكون فيه التعدّد، مع إمكان التعبير الحرّ عنه، يمكن أن يفكّ حصار مخياله، وأن يتسع –في ثقافته– مجال الآخرية لغير الغرب ولغير العدوّ"(١).

ومنذ انتهاء الحرب الباردة بدأت عناصر من الغرب والعالم الإسلامي تنزع أكثر فأكثر إلى إحياء صور قديمة مستمدّة من خبرة عمرها ألف عام من المواجهة والمعايشة بين الإسلام والغرب(٢).

ويتبنّى كثيرٌ من المفكّرين اليوم طرح رؤىً مختلفة، هدفها تقديم تصوّر حول الآخر. بل وتحرص كثيرٌ من الدول على عقد لقاءات ومؤتمرات للحوار حول تلك الصور وتشكّلها؛ وما يُبنَى على ذلك من علاقات، ومظاهر للتعاون والتواصل وتبادل المنافع، أو الاحترام والسلام حدًّا أدنى ونبذ العنف(٣)؛ وذلك لأنه "لا يمكن لحوار

(١) الطاهر لبيب، بحث (الآخر في الثقافة العربية)، ضمن كتاب (**صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت– لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م ص٢٢٧.

(٢) انظر: جراهام إي. فوللر، وإيان أو. ليسر، (**الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة**)، ترجمة شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص١٨٩.

(٣) أسّست الأمم المتحدة ما يعرف بمنظمة (تحالف الحضارات The Alliance of Civilizations)؛ بهدف العمل على تحسين العلاقات بين الشعوب والأمم المختلفة، وفي عام ٢٠١٢م افتُتح مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز العالمي للحوار بين أتباع الأديان والثقافات.

حضاري أو عملية مثاقفة أن تستقيم على قاعدة العنفين: العسكري والثقافي"[١].

إنّ الأمم اليوم تتشارك عالمًا واحدًا متداخلًا، ولا يكاد يحدث تغيّر في الشرق حتى يؤثر في الغرب، ولا يَجِدّ اكتشاف في الغرب حتى ينعكس أثره في الشرق، فلا بد من أن يعرف الشرق غربه ويعرف الغرب شرقه.

والأمم المتحضّرة تُعنَى كثيرًا باستكناه أولئك الذين يتقاسمون معها هذا الكون، وممّا يشهد لذلك أنه خلال الفترة من ١٨٠٠ حتى ١٩٥٠م – حسب إدوارد سعيد- أُنجِز في الغرب أكثر من ستين ألف كتاب حول المشرق[٢]، وأُسِّست عشرات المنظّمات في الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الشرق العربي والإسلامي[٣]، بينما في بلادنا العربية والإسلامية لا تكاد توجد منظّمات متخصّصة، ولا يوجد إلا النزر اليسير من الدراسات المعمّقة للآخر الغربي! مع أن الآخر يحضر في كل شيء لدينا - تقريبًا - ويؤثر في تفصيلات حياتنا الصغير منها والكبير.

ولا شك في أن بعض المفترقات التاريخية الحاسمة يكون حضور الآخر فيها، وتكون الحاجة فيها لاكتشافه أكثر بكثير من فترات الاستقرار. وعالمنا العربي اليوم يعيش هذه المفترقات، التي يشكّل فيها الاحتكاك بالآخر ملمحًا بارزًا من ملامح تاريخنا المعاصر؛ وينعكس ذلك في الأعمال الروائية -خاصة- بوصف الرواية حمّالةً للأفكار، وبوصفها قادرة على تقديم رؤية عميقة مستوعِبة عن علاقة الذات بالآخر.

والرواية السعودية –في كثير من مراحلها- كانت معنيّة بتقديم تصوّر عن

---

(١) د.عفيف فراج، (**ثنائية شرق- غرب في مرايا هيغل، غارودي، راسل، إدوارد سعيد، بول كنيدي، جليبير الأشقر**) دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٤١.

(٢) انظر: إدوارد سعيد، (**الاستشراق – المفاهيم الغربية للشرق**)، ترجمة د.محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٣٢١.

(٣) انظر السابق، ص ٤٩١.

(الآخر)، وعن علاقة الذات بالآخر؛ ويأتي هذا البحث ليجلّي هذه التجلّيات للآخر في المدوّنة الروائية السعودية، والرؤية التي تقدّمها تلك الروايات حول أنماط العلاقة بالآخر، مع البحث عن خلفيات هذه التجليات وتلك الرّؤى. سواء أكانت تلك الخلفيات ذاكرة فردية أم ذاكرة جماعية وهو الأبلغ أثرًا؛ لأنّ "الذاكرة الجماعية أطول عمرًا، وأعمق اجتراحًا من ذاكرة الأفراد"[١].

وتحاول هذه الدراسة أن تمكّننا من فهم الآخر أكثر؛ لأن الفهم يجعلنا أكثر دراية بآخرنا.

وقبل اكتشاف الآخر وفهمه فإنّ هذه الدراسة محاولة لاكتشاف الذات؛ فالعلاقة بين الذات والآخر علاقة وجود، بمعنى أنه لا وجود لأحدهما دون الآخر، ولا تتحدّد ملامح الذات إلا عبر تحديد ملامح الآخر.

إنّنا نرى في الآخر صورة أنفسنا، ولا يمكن لنا أن نميّز أنفسنا حتى نميّز الـ (أنا) الخاصة بنا عن (أنا) الآخر[٢].

وإِذَن فإنّ هذا البحث يهدف إلى:

- معرفة الذات من خلال معرفة الآخر؛ لأن الذات لا تتحدّد معالمها وحدودها إلا من خلال تموقعها من الآخر.
- تجلية رؤية الذات للآخر على اختلاف تجلّياته.
- تحليل تجلّيات الآخر في الرواية السعودية.

---

(١) عبد السلام المسدّي، (**تأملات سياسية- خواطر هادئة في زمن ملتهب**)، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، ص ١٣٧.

(٢) انظر: د.صالح بريك، (**الكره أو اللاتسامح مع الآخر- منظور نفسي اجتماعي**)، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٠م، ص ٧٨.

ولتحقيق هذه الأهداف سينقسم البحث قسمين:

المبحث الأول: تجليات الآخر السلبية.

المبحث الثاني: تجليات الآخر الإيجابية.

أبرز الدراسات السابقة:

- حسين العودات، (**الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين**).
- د. محمد نور الدين أفاية، (**الغرب في المتخيل العربي**).
- نادي الباحة الأدبي، (**تمثيلات الآخر في الرواية العربية**).
- مجموعة باحثين، تحرير الطاهر لبيب، (**صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**).

والدراستان الأوليان تتناولان الآخر من وجهة نظر ثقافية بحتة في الثقافة العربية، وعند المثقفين العرب أمثال محمد عبده، وطه حسين، ولم تدرسها من وجهة نظر أدبية.

وأما الكتاب الثالث فقد أشتمل على عدد من البحوث التي تتناول الآخر بمفهومه العام الذي يعني الآخر المهمّش، والآخر الأنثى بالنسبة إلى الرجل وهكذا، كما أن أيًّا من تلك البحوث لم يدرس صورة الآخر الغربي بمفهومه الحضاري في الرواية السعودية[(١)]، وهو ما اتجه إليه هذا البحث.

وأما الكتاب الرابع فهو عبارة عن مجموعة بحوث نشرتها الجمعية العربية لعلم

(١) ورد ضمن الكتاب بحث (تمثيلات المدينة الغربية في الرواية النسوية السعودية) للدكتور حسين المناصرة، ولكنه ركز على حضور المدينة الغربية، وكيف صورتها الرواية النسوية السعودية، ولم يتطرق إلى الآخر الإنسان، وتلك هي مادة بحثي هذا. انظر: نادي الباحة الأدبي، (**تمثيلات الآخر في الرواية العربية**)، النادي الأدبي بمنطقة الباحة، توزيع مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١١م، ص٥٥، وما بعدها.

الاجتماع؛ فيغلب عليها طابع علم الاجتماع، كما أنّ أيًّا من تلك البحوث لم يتناول أيّة رواية سعودية.

وقد أفاد الباحث من تلك البحوث والكتب، وأضاف إليها ما يتعلق بدراسة الآخر بمفهومه الحضاري في المدوّنة الروائية السعودية.

المبحث الأول: تجليات الآخر السلبية

الغرب الشيطان:

يتماهى الغرب مع الشيطان في نظر بعض شخصيات الرواية السعودية؛ لما يمثّله هذا الغرب من السلبيات والنقائص.

"بريطانيا هي الوجه الآخر لإبليس"[١].

كانت هذه عبارة (هيلا الهيلي) الحاخام اليهودي الأوروبي الذي أسلم في رواية (اليهودي والفتاة العربية).

وأمّا في رواية (ريح الجنة) فقد كانت الشخصيات المتكاثرة التي حشدتها الرواية تردّد هذه الجملة بشكل أو بآخر على امتداد صفحات الرواية في محاولة لاستبطان الخلفيات التي أدّت إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ فأمريكا - في نظر تلك الشخصيات - هي "الشيطان الأكبر"[٢]، وهي "رأس الثعبان"[٣]، وفيها "عرش الشيطان"[٤]، إنها "هُبَل العصر"[٥]، و"طاغوت العصر"[٦]، و(نيويورك) "قلب إمبراطورية الشيطان"[٧].

---

(١) عبد الوهاب آل مرعي، (**اليهودي والفتاة العربية- قصة الحب الخالدة**)، مؤسسة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤٢٨هـ، ص٤٢٢.

(٢) تركي الحمد، (**ريح الجنة**)، دار الساقي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص٢٥١.

(٤) المصدر السابق، ص٢٤٠.

(٥) المصدر السابق، ص٢١٧.

(٦) المصدر السابق، ص٢١٧.

(٧) المصدر السابق، ص١٣.

وأمّا معالم (أمريكا) فهي تستدعي في الذاكرة الجَمْعية لتلك الشخصيات سِيَرَ أعتى الطغاة، وأبشع الصور وأشنعها:

ما ناطحات السحاب في (نيويورك) إلا صناعة "من يريدون أن يحتلوا مكان الرب... يا لهم من مستكبرين.. يريدون الوصول إلى السماء كما سبق للنمرود أن فعل، ولكن هيهات"(١). هكذا حدّث (محمد) نفسه.

وأمّا برجا مركز التجارة العالمي في (نيويورك) فلا يراهما (محمد) إلا "كنابي أفعى سامة، أو كصنمين يمثلان أمريكا المستكبرة وحضارتها المادية"(٢).

وفي رواية (شرق الوادي) بدت (نيويورك) في ناظري (جابر) "غابة من شجر زقوم حجري طافية على لجة من ماء شديد الزرقة، طلعها كرؤوس الشياطين"(٣).

وأمّا في رواية (العصفورية) فإنّ (واشنطن) في نظر (البروفيسور بشار الغول) هي "عاصمة الاستكبار العالمي"(٤).

ومن المنطقي هنا أن نتساءل: ما الذي يجعل شخصيات الرواية السعودية (تُشيطِن) الغرب إلى هذه الدرجة؟

لعلّ في الفقرات الآتية ما يكشف الخلفيات التي تؤسّس لهذه النظرة السوداوية للغرب.

---

(١) المصدر السابق، ص١٥- ١٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٧.

(٣) تركي الحمد، **رواية (شرق الوادي - أسفار من أيام الانتظار)** دار الساقي، بيروت- لبنان الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م، ص٢١٣.

(٤) غازي القصيبي، **(العصفورية)**، دار الساقي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٩٩م، ص١٢٧.

الغرب المنحل:

من أكثر ما يلفت أنظار الرواية السعودية في العالم الغربي انحلاله، وتخلّيه عن القيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية.

في رواية (شرق الوادي) تتألم عائلة (غريس) العائلة اللبنانية المسيحية المهاجرة إلى أمريكا مِن بُعْد الأمريكيين عن المسيحية الحقيقية، لأنّ أمريكا "بلد لا يعرف من المسيح إلا اسمه"(١).

وتجلّي رواية (فتاة من حائل) استخفاف المجتمع الأمريكي بالقيم الدينية والأخلاقية(٢).

وليست القيم الاجتماعية بأحسن حالًا من الدين.

تصور ذلك رواية (فتاة من حائل) فالعلاقات الاجتماعية شبه مقطوعة، وكلٌّ يقيم لوحده، وكبار السن في دور العجزة(٣).

وتشتكي (باتريشا) الأمريكية من جفاف المجتمع الأمريكي، وعدم وجود العاطفة الصادقة(٤).

وتؤكّد رواية (دروس إضافية) هذا المعنى، فالأب والأم لا يعلمان شيئًا عن مكان إقامة ابنتهما (سارا)، ولم يرياها منذ عدة سنوات(٥).

---

(١) (شرق الوادي)، ص٢٣١.

(٢) انظر: محمد عبده يماني، (**فتاة من حائل**)، طبعة المؤلف، توزيع مكتبة تهامة، جدة، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٢١.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٧٨.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٥) انظر: منصور الخريجي، (**دروس إضافية**)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٧٨.

وفي رواية (لحظة ضعف) نجد برودة العلاقات العائلية، وتفكّك الأسرة الغربية[١]، فالفتاة الشابة لا ترغب في الإقامة مع أسرتها[٢].

وتصوّر رواية (دفء الليالي الشاتية) هذا البرود في العاطفة، والتفكّك الأسري الذي جعل (جين) تهجر أمّها سنوات طوالًا دون أن تسأل عنها، أو تتصل بها[٣].

وفي تفكير غربي غريب ترفض (ناتالي) الفرنسية في رواية (رقص) الزواج من صديقها العربي الذي تقيم معه؛ لأنها ترى الزواج مفسدًا للحب[٤]!

وانطلاقًا من ذلك المنظور المشوّش ترى (ماريانا) التقبيل والعلاقة بين الرجل والمرأة حقًّا لمجرّد أنهما يحبّان بعضهما[٥].

وفي رواية (العصفورية) يصرّ المسيحيون على الرهبانية دون زواج فيقع القسّ في هوى إحدى الراهبات، ويزانيها فتحمل منه وتنتحر؛ فيصاب بالجنون[٦].

ويناقش (بندر) في رواية (دروس إضافية) صديقته الأمريكية (سارا) التي ترفض وتستغرب تعدّد الزوجات المباح في الشريعة الإسلامية، لكنها تقبل تعدّد العلاقات المحرّمة في الغرب[٧]!

---

(١) انظر: فؤاد صادق مفتي، (**لحظة ضعف**)، تهامة، جدة، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٦٤.

(٣) انظر: عبد الله العريني، (**دفء الليالي الشاتية**)، طبعة المؤلف، توزيع دار إشبيليا، ط٣، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص٩٣، وما بعدها.

(٤) انظر: معجب الزهراني، (**رقص**)، دار طوى، لندن، ط١، ٢٠١٠، ص٢١٩.

(٥) انظر: عصام خوقير، (**السنيورة**)، تهامة، جدة- السعودية، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣٠.

(٦) انظر: (العصفورية)، ص٩٨.

(٧) انظر: (دروس إضافية)، ص١٠١.

وبمثل هذا المنطق الغريب ترفض (غريس) الزواج من (جابر) بعد أن حملت منه سفاحًا؛ لأنه متزوج من أخرى، والتعدّد محرّم في ديانتهم المسيحية! "كان منطقها غريبًا، فهي لا ترضى الزواج على أخرى، ولكنها لا تمانع في العلاقة بينهما"[(١)]!

وتتعدّد العلاقات المحرّمة في الغرب، هكذا رأى (جابر) رؤساءه الأمريكيين ونساءهم في الشركة التي يعمل بها، فالأزواج والزوجات كلٌّ منهم يقع في علاقات غير شرعية[(٢)].

ويقيم الشاب الأمريكي (بنجامين) في رواية (دروس إضافية) علاقات عبثية مع الفتيات لا يكون هدفه من ورائها إلا العبث والتسلية[(٣)].

ولا تستنكر العائلة الغربية أن تتخذ ابنتهم خليلًا تُحضِره إلى بيت العائلة، وتعاشره كالأزواج إمّا قناعة من العائلة بذلك السلوك الغربي كما نرى في روايات (السنيورة)[(٤)]، و(فتاة من حائل)[(٥)]، و(دروس إضافية)[(٦)]، أو كَرْهًا لأنّ القانون الغربي يحمي مثل تلك العلاقات غير الشرعية كما نرى في (شرق الوادي)[(٧)]!

وقد يكون ذلك لقلة الغيرة لديهم؛ فيرى الأزواج زوجاتهم يراقصن رجالًا آخرين، ولا يستنكرون ذلك بسبب (أكل لحم الخنزير) كما يعلّل (جابر) في رواية (شرق الوادي)[(٨)]! بل والأبشع من ذلك أن يرى الرجل زوجته تعاشر رجلًا آخر ولا يستنكر

(١) (شرق الوادي)، ص٢٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص١٨٠.

(٣) انظر: (دروس إضافية)، ص٣٤.

(٤) انظر: (السنيورة)، ص٣٤.

(٥) انظر: (فتاة من حائل)، ص٢٦٥.

(٦) انظر: (دروس إضافية)، ص١٠١، وما بعدها.

(٧) انظر: (شرق الوادي)، ص٢٣١.

(٨) انظر: المصدر السابق، ص١٨٨.

ذلك كما رأينا (بوب) الأمريكي في الرواية[١]، وكما رأينا (اللورد) في رواية (العصفورية)[٢]، وفي بعض الأحيان قد يكون من الغربيين من تكون لديه غيرة على زوجته، كما هو حال (السيد سميث) البريطاني الذي كان يعلم بخيانة زوجته له مع (فيصل) في رواية (عيون قذرة)، لكنه لا يستطيع فعل شيء؛ لأنّ القانون يحميها[٣]! وأمّا (هانك) في رواية (العصفورية) فقد كانت له ردة فعل مختلفة حيث أطلق النار على (بشار الغول) حين وجده مع زوجته[٤].

وقد يكون سبب عدم المبالاة لدى الغرب ألفتهم لمناظر التفسخ والانحلال، حيث الإعلانات والصور الفاضحة تملأ الأرجاء[٥]، وحيث العناق والقبلات على رؤوس الأشهاد في الأماكن العامة دون خجل أو حياء، وذلك ما يكون مثيرًا للاستغراب كما نجد في رواية (فتاة من حائل)[٦]. وفي (عيون قذرة) اندهشت وتعجبت - وربما اشمأزت- ليلى من مشاهدتها "فتاة شقراء فارعة الطول تتأبط ذراع شاب أسود، تأملتهما وهما يضحكان ويتهامسان ثم يتبادلان القبلات دون أدنى حياء"[٧]!

وتنتشر المراقص على امتداد تلك البلدان. والمراقص لازمة مكانية من لوازم أية رواية تجلّى فيها الآخر الغربي، وتحضر تلك المراقص من خلال منظور يستنكرها –في الغالب- ويستنكر ما تضمّ بين جنباتها من أجساد شبه عارية كما نجد في رواية (لحظة

(١) انظر: المصدر السابق، ص٢٠٧، وما بعدها.
(٢) انظر: (العصفورية)، ص١٨٩.
(٣) انظر: قماشة العليان، (**عيون قذرة**)، دار الكفاح، الدمام، ١٤٣٠، ص٥٤- ٥٥.
(٤) انظر: (العصفورية)، ص٢٩٨.
(٥) انظر: (عيون قذرة) ص١٣، وانظر كذلك (لحظة ضعف)، ص١٨.
(٦) انظر: (فتاة من حائل)، ص٢٨٦.
(٧) (عيون قذرة)، ص١٢.

ضعف)[١]، وفي رواية (دروس إضافية)[٢].

في رواية (لحظة ضعف) كانت تلك المراقص بداية لتعرّف (طارق) على (ليزا) ثم زواجه الفاشل منها. ومثل تلك الحبكة تتكرر في (دروس إضافية) حيث يتزوج (بندر) من (سارا) التي تعرّف عليها في المرقص، ولم يكن أحسن حظًّا من (طارق)؛ فباء زواجه - أيضًا- بالفشل.

وجنبًا إلى جنب تحضر مناظر الخمور مثيرة للتقزّز والاشمئزاز كما نجد لدى (طارق) في رواية (لحظة ضعف) حيث أثار منظر زجاجات الخمر اشمئزازه، وتذكّرَ حينها بلاد الحرمين التي لا توجد فيها مثل تلك المناظر علنًا[٣]. ويثير منظر هذه الخمور اشمئزاز (هيلة) زوجة (جابر) في رواية (شرق الوادي)[٤].

وتصوّر رواية (دفء الليالي الشاتية) انتشار الجريمة والمخدّرات في مدينة (نيويورك)[٥].

إنّ هذا الحضور الجارف للمغريات من مظاهر العري، وانتشار المراقص، والخمور يُشعل الشهوات، ويُشِيْع الفوضى الجنسية لدى الآخر الغربي، ففي رواية (شرق الوادي) يستغرب (جابر) من شبق الأمريكية (إيثل)[٦].

وفي رواية (ريح الجنة) تستهجن الشخصيات ذلك الانغماس الغربي في الشهوات

(١) انظر: (لحظة ضعف)، ص٥٢، ٥٧، ٦٣.

(٢) انظر: (دروس إضافية)، ص٤٣، ١٢٩، ١٦٦.

(٣) انظر: (لحظة ضعف)، ص١٧.

(٤) انظر: (شرق الوادي)، ص٢٦٢.

(٥) انظر: (دفء الليالي الشاتية)، ص١٠.

(٦) انظر (شرق الوادي)، ص١٨٣.

الجسدية، ويردّد (زياد) بينه وبين نفسه: "يا لهم من عبيد للغرائز والجسد هؤلاء الكفرة"(١). وفي موضع آخر يصفهم (رمزي) بأنهم "عبيد الجسد"(٢).

والمجتمعات الغربية تُعنَى بالجسد عناية بالغة؛ حيث "يقف الجسد ممثّلًا للذات اللاواعية؛ الشيء الذي دفع المجتمعات الغربية – منذ سنوات عديدة- إلى الاهتمام بالجسد اهتمامًا كبيرًا، وذلك في جميع حالاته: عاريا- معروضا- قويا- يافعا- مغريا، إلخ"(٣).

ويدفع هذا الانغماس في الشهوات والانحلال الخلقي إلى ممارسات منافية للفطرة السليمة، فـ (السيد بوب) في رواية (شرق الوادي) (مازوخي) يستمتع بتعذيب الذات أثناء ممارسة الجنس(٤)، ومثله زوجته (إيثل)(٥).

ويقود هذا الانحلال أيضًا إلى (الشذوذ) الذي تأباه الفطر السليمة، ولا يكتفي أولئك الشواذ بالاستتار بشذوذهم بل يسيرون في مظاهرة في شوارع (تورنتو) مطالبين بمزيد من الحقوق كما تصور رواية (الوارفة) التي استنكرت ذلك التبجّح "المقرف المقزز"، وذلك الشذوذ المضادّ للفطرة الإنسانية(٦).

والنهاية المؤلمة لكل تلك الرحلة من الانحلال، والانغماس في الشهوات، والتفكّك الأسري، والفراغ الروحي هي النهاية الأسوأ: (الانتحار)، وهذا ما فعله (بوب) في

(١) (ريح الجنة)، ص٢٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦٣.

(٣) د.جمال بوطيب، (**نحن والآخر – تجليات جسدانية في الفكرين العربي والغربي**)، مؤسسة التنوخي، آسفي- المغرب، ط١، ٢٠٠٨م، ص١١.

(٤) انظر: (شرق الوادي)، ص٢١٩.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٨٩.

(٦) أميمة الخميس، (**الوارفة**)، دار المدى، دمشق- سورية، ط٢، ٢٠١٠م، ص٢٤١- ٢٤٢.

رواية (شرق الوادي)[١].

جانب آخر يجعل الحياة الغربية كئيبة ثقيلة، إنه جانب غلبة المادة، وطغيان (البراغماتية).

الغرب المادي:

"كفار لا يعرفون الله، ولا يثقون بغير المال والعمل"[٢]. بهذه العبارة وصفت رواية (شرق الوادي) المجتمع الأمريكي، فالقيم عنده مرجعها المادية. إنها (البراغماتية) الغربية إزاء روحانية الشرق. وهذه (البراغماتية) الغربية هي التي أدركها (أبو عثمان) عن سياسة الإنجليز؛ حيث يتعاملون مع الآخرين مثل التعامل مع (النعال): يستخدمون الصالح منها حتى يتلف؛ عندها يُرمى، ويُلبَس غيره، وهكذا[٣].

وتؤكّد رواية (رقص) هذا المعنى؛ حيث تؤكد تعلق الشخصية البريطانية بالمصالح الدنيوية[٤].

وتصف رواية (دفء الليالي الشاتية) مدينة (نيويورك) بأنها "ذات القلب الصلد القاسي.. مدينة الآلة الكبيرة التي تطحن كل شيء في دورانها"[٥].

وفي هذا العالم الغربي "كل واحد مشغول بنفسه، ولا يجد وقتًا للتفكير في الآخرين"[٦].

---

(١) انظر: (شرق الوادي)، ص٢٥٤.

(٢) المصدر السابق، ٢٠٢.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٧٤.

(٤) انظر: (رقص)، ص٨٥.

(٥) (دفء الليالي الشاتية)، ص٩- ١٠.

(٦) المصدر السابق، ص١١.

وتصوّر رواية (لحظة ضعف) غلاء الأسعار في الولايات المتحدة، وتؤكّد ذلك رواية (فتاة من حائل)، حيث كلّ شيء في أمريكا "محكوم بالدولار والسنت"[١].

الغرب المزيف:

لقد حاولت بعض الروايات التفطّن إلى أنّ الغرب حقيقته ليست على ظاهره، وأنّ الذي يعيش في الغرب، ويستبطن دواخله ينكشف له أنّ كثيرًا ممّا يشيع عن الغرب من تجلّيات إيجابية ليس سوى قشرة خارجية ظاهرة سرعان ما تتكشّف عن السوءات الغربية.

في رواية (فتاة من حائل) تكتشف (هيا) -حين ترى فتاة تعمل ساقيةً في مقهى- أنّ الغرب لا يحترم المرأة في الحقيقة، وإن كان يقدّمها عند الدخول أو الخروج، فتلك أمور شكلية، وأمّا في الحقيقة فهو يمتهنها، ويضطرّها إلى العمل في وظائف لا تتناسب وأنوثتها[٢].

وتؤكد (هيا) هذا المعنى في موضع آخر مُنتقِدة التناقض الغربي تجاه المرأة: "يجاملون المرأة ويقبلون يدها.. ثم يتركونها للذئاب تنهشها وكأنها لا تمت إليهم بأية صلة"[٣].

وفي موضع آخر من الرواية – فيما يؤكد أنها رؤية تريد الرواية إيصالها- يأتي مثل هذا الانكشاف، ولكنه على لسان شخصية من هذا المجتمع الأمريكي نفسه، ومن جنس النساء كذلك إنها (جين) التي تقول مفنّدة ظاهر حرية المرأة الغربية: "صحيح أن المرأة عندنا تتمتع بحرية كاملة.. وهذا قد يبدو جميلا بادئ الأمر.. ولكن ما هي النهاية؟.. إننا نلهو ونرقص ونفعل ما نشاء في مقتبل حياتنا.. ولكن ما أن يتقدّم العمر

(١) (فتاة من حائل)، ص٢٢٠.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٢٨٨- ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣١١.

بالمرأة بعض الشيء حتى ينفض الرجال من حولها شيئا فشيئا"[١].

وفي رواية (دفء الليالي الشاتية) تكشف الأمريكية (جين) شيئًا من قسوة الحياة التي تحيط بالمرأة الأمريكية حيث تُضطَرّ إلى العمل الشاق المضني الذي يستهلك زهرة شبابها، في مجتمع يمتهن أنوثتها، ويستمتع بفتنتها في صداقات عابرة تخسر فيها كلّ شيء دون أن تكسب طفلًا تناغيه وتهدهد سريره، وتهزّه برفق لينام نومًا هانئًا في ليالي الشتاء الطويلة[٢].

وتتعمّق رواية (العصفورية) الغرب أكثر وأعمق، حيث يقلّب (البروفيسور بشار الغول) الرأسمالية والديمقراطية –ركيزتَي الحضارة الغربية– على وجوههما؛ مكتشفًا وكاشفًا أوجهًا خفية وثغرات جوهرية في هاتين الركيزتين، وعلى الرغم من أنه كان هو ورفاقه المبتعثون في مقتبل العمر، وإقبال الحياة، وفورة الشباب فإنهم كانوا مدركين تمامًا لتلك الثغرات؛ ليس لعلميّتهم ومعرفتهم، بل لأنهم عايشوا تلك الحياة الغربية، ورأوا بأمّ أعينهم الممارسة الواقعية والتطبيق الفعلي لتلك القيم الغربية في "قلب الليبرالية النابض سان فرانسسكو"، يقول: "لم نكن نصدّق كل ما نسمع عن الديمقراطية. كنّا نرى بأعيننا سيطرة الصهاينة على الكونجرس، رغم الديمقراطية. وكنّا نرى كيف كان الزنوج، الذين كانوا يُسمَّون أيامها الملوّنين، يُعاملون في المجتمع الأمريكي الديمقراطي"[٣].

ويدرك أولئك الشباب حقيقة الرأسمالية، وكيف أنها ترسّخ الطبقية؛ فتزيد الغنيّ غنىً، والفقير فقرًا، ليس بهذه الفلسفة التي يصوغها الباحث هنا، بل بأسلوب مباشر

(١) المصدر السابق، ص٣٢٩.

(٢) انظر: (دفء الليالي الشاتية)، ص١٥٠، وما بعدها.

(٣) (العصفورية)، ص٥٦.

من خلال رؤيتهم الواقع المكرور أمام أعينهم كلّ يوم: "لم نكن نعتقد أن الرأسمالية نظريّة نازلة من السماء. كنا نرى بأعيننا الملوّنين يبحثون في صناديق القمامة عن طعام وعن ملابس. كنا نرى المشهد كل يوم"[١].

ويكتشف البروفيسور –لكن ربما كان ذلك بعد تمرّسه في الحياة العملية– أنّ البيروقراطية نجحت في شلّ قدرات رؤساء أمريكا المتعاقبين عن طريق حِيَلها الخفيّة ما بين الإشغال بأدقّ التفصيلات، أو حجب كلّ التفصيلات، والإشغال بأشياء جانبية[٢]!

تلخّص الرواية نضج الرؤية، واكتشاف الزيف الأمريكي في مقولة البروفيسور معبّرًا عن حاله ورفاقِه الشباب، ومعرّضًا –ربما– بآخرين: "كنّا أبرياء، ولكننا لم نكن أغبياء. كُنّا نرى عيوب المجتمع الأمريكي، وكُنّا نعرف أنها عيوب، ولم يخطر ببالنا غمضة عين أنها محاسن"[٣].

وأمّا رواية (ريح الجنة) فهي تحاول نقل تصوّر بعض الشباب المتطرّف للقوة الأمريكية وللعالم الغربي برمّته فأمريكا –في نظرهم– "مجرّد نمر من ورق"[٤]. وليست هيبة أمريكا سوى "هيبة مزيفة"[٥]، ويسخر (محمد) من المخابرات الأمريكية، ويحدّث نفسه: "أرعبونا بالأمريكان وتقنيتهم ودقتهم وجبروت مخابراتهم، لو أن الأمر صحيح لكانوا كشفونا منذ زمن، فقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء"[٦]. وذلك حين كان يتذكّر تفصيلات الخطة التي نفذها مع رفاقه للقيام بهجمات إرهابية ضدّ الولايات المتحدة.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٢٨٦– ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق، ص٥٦.

(٤) (ريح الجنة)، ص٢٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص٢٥٤.

(٦) المصدر السابق، ص٢٧.

وتنقل الرواية تصوّر أولئك الشباب للآخر الغربي في تعامله مع المسلمين من منطلق ديني، يحدّث (محمد) نفسه -تعليقًا على عدم موافقة جامعة (هامبورغ) على منح المسلمين غرفة للصلاة-: "كارهون للإسلام هؤلاء النصارى، فرغم [هكذا] كل حديثهم عن التسامح والحرية، إلا أنهم يجدون غضاضة في أن يسمحوا للمسلمين بالسجود للواحد القهار في أروقة جامعتهم"(١).

الغرب المعتدي:

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي اتجهت بوصلة العداء الغربي -الأمريكي خاصة- تجاه العالم الإسلامي، يؤكّد ذلك (عبده الزمر) في رواية (ريح الجنة): "فبعد أن سقط الاتحاد السوفيتي الملحد... بدأت أمريكا الصليبية وإسرائيل اليهودية تخشيان بعثًا إسلاميًّا يدمرهما بعد أن دمر الملحدين الروس، ولذلك أعلنت أميركا الحرب على الإسلام تحت ستار الإرهاب"(٢).

وتصوّر رواية (شرق الوادي) المعاملة المستَعْلِية من الأمريكان تجاه (جابر) ورفاقه في الشركة التي يعملون فيها مرؤوسين؛ فإنه يكون "في أشد حالات الضيق من المعاملة التي يلقونها من رؤسائهم من الأمريكان. كانوا يحسون بالمهانة والكرامة المجروحة وهم يسمعون تعليقات الأمريكان على كسلهم وغبائهم، وألفاظ أخرى كثيرة كانت تستوجب القتل لو سمعوها من آخرين في بلادهم"(٣).

ولا غرابة أن يعامل الأمريكيون العرب ممّن تحت أيديهم بهذا الاستعلاء؛ فهم يعاملون مواطنيهم من السّود بمثل هذا التعامل الجارح المُسْتَعْلي(٤).

(١) المصدر السابق، ص٥٦- ٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢١٦.

(٣) (شرق الوادي)، ص١٦٠- ١٦١.

(٤) انظر: (ريح الجنة)، ص٥٤.

وهذا التصوّر للغرب المعتدي لا يقتصر فقط على الحكومات الغربية – في نظر الشباب المتطرّفين في رواية (ريح الجنة)- بل يشترك في ذلك عامة الشعوب الغربية لأنهم يدفعون أموال الضرائب لتلك الحكومات، ولأنهم يسكتون عن ظلم حكوماتهم وعدوانها على الآخرين(١).

وليست أمريكا وحدها بل تشاركها دولة (إسرائيل): "أميركا وإسرائيل وراء كل مصائب المسلمين في هذا العالم"(٢).

وتتماهى أمريكا مع إسرائيل في تصوّر تلك الشخصيات: "إسرائيل هي أمريكا في الشرق أو هي إنكلترا"(٣).

وفي رواية (شرق الوادي) يرى (جابر) أنّ اليهود أعداء الله والنصارى يحالفونهم ويتعاطفون معهم(٤).

ولذلك حين قامت دولة (إسرائيل) في الشرق بادرت أمريكا بالاعتراف بها(٥)!

وتفرّق رواية (دروس إضافية) فتؤكّد أنّ عامّة الأمريكيين لا يعرفون شيئًا عن حقيقة الصراع بين العرب واليهود في أرض فلسطين، ولا يدركون أحقيّة العرب في أرض فلسطين(٦). وذلك ما تترجمه (سارا) التي تزوجها (بندر) حيث وقفت على الحياد أثناء حرب ١٩٦٧(٧)! ولكنّ هذا الموقف المحايد من أمريكا –فضلًا عن

(١) انظر: المصدر السابق، ص٣٩.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.
(٣) المصدر السابق، ص١٥٥.
(٤) انظر: (شرق الوادي)، ص١٩٠.
(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٨٤.
(٦) انظر: (دروس إضافية)، ص٢٢٨.
(٧) انظر: المصدر السابق، ص٢٢٦.

انحيازها لإسرائيل- ليس مقبولًا عند (بندر) -ومِن ورائه العرب- لأنّ على أمريكا "بصفتها الدولة العظمى في العالم أن تساعد في رفع الظلم عن شعب مقهور اغتصبت أرضه وشرد من وطنه بدلًا من مساعدة المغتصب على أن يزداد قوة وشراسة"[(١)]!

وليس الموقف الإنجليزي بعيدًا عن الموقف الأمريكي كما تصوّر رواية (فتاة من حائل)؛ فالإنجليز ينحازون لليهود ويناصرونهم أثناء حروبهم ضدّ العرب[(٢)]! وتحدّثنا رواية (مشرّد بلا خطيئة) عن الموقف المنحاز للقوات البريطانية أثناء المعارك التي كانت تنشب بين العرب واليهود -إبّان فترة الاحتلال البريطاني لفلسطين- "حتى إذا مالت الكفة إلى صالح العرب جاءت القوات البريطانية بدباباتها ومصفحاتها وجنودها، تنصر اليهود"[(٣)]!

إنّ تلك المواقف الغربية تجعل المناضلين العرب -على اختلاف اتجاهاتهم- ينظرون إلى دول الغرب على أنها دول استعمار وهيمنة -كما تصور رواية (رقص)- وأنهم أعداء في ثياب حلفاء[(٤)]!

(١) المصدر السابق، ص٣٥٠.

(٢) انظر: (فتاة من حائل)، ص٩٥.

(٣) محمد عبده يماني، (**مشرّد بلا خطيئة**)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص١٢.

(٤) انظر: (رقص)، ص٨٧.

المبحث الثاني: تجليات الآخر الإيجابية

القيم الغربية:

إنّ أبلغ ما يؤثر في الشرقي حين يزور الغرب أو يعيش فيه بعض القيم الغربية التي ربما يفتقر إليها الشرق، وفي أعلى سُلّم تلك القيم المُعجِبة: الحرية.

لقد أصبحت الحرية الغربية في المخيّلة العربية سمة بارزة حاضرة بقوة في كلّ ما يكتبه الشرقي عن الغرب؛ فالغرب -في تصور الشرقي- مرادف للحرية.

تؤكّد رواية (رقص) هذا الحضور المفعم للحرية، ولا تفتأ الرواية تورد هذا التأكيد بين فينة وأخرى، فتؤكّد أن فرنسا "بلد الحرية"[(١)]، وفي موقع آخر أنها "بلد الحرية والمساواة والجمال"[(٢)].

وفي رواية (بنات الرياض) يتبدّى هواء (سان فرانسسكو) "مشبعًا بالرطوبة والحرية"[(٣)].

وأمّا (لندن) فهي بلد الحرية الأول -وِفقًا لرواية (العصفورية)- حيث تتبدّى "فضاءً مفتوحًا بلا رقابة أو مراقبين"[(٤)]. وتذهب الرواية إلى أبعدَ من ذلك حين توازن بين (لندن)، وغيرها من العواصم الغربية: "لا توجد عاصمة في العالم تتساهل هذا التساهل مع حرية الرأي... حتى باريس مدينة النور تضع بعض العوائق البيروقراطية.

---

(١) (رقص)، ص٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٥.

(٣) رجاء الصانع، (**بنات الرياض**)، دار الساقي، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٦م، ص١٥٥.

(٤) (العصفورية)، ص١٦٧.

حتى واشنطن"[١].

ويصل بريق الحرية الغربية إلى ما وراء الحدود، ويعبر المحيطات والصحارى؛ فيُغري بالهجرة كما تؤكد رواية (شرق الوادي)[٢].

وفي رواية (عيون قذرة) تنبهر (سارة) بالحرية، وتصاب بالصدمة حين رأت في مكتبة من مكتبات (لندن) كثيرًا من الكتب والروايات التي تتناول "كل شيء في الدنيا دون قيود ومحظورات وموانع"، وذلك في "شتى العلوم المتنوعة"[٣].

وفي رواية (رقص) يخشى صديق الراوي عليه من أن يصاب بالجنون من حجم جرعة (الحرية) في فرنسا بلد الحرية كما يسمّيها[٤].

وفي أجواء الحرية تلك لا غرو أن يكون الغربي مُنطلِقًا أريحيًّا، وأن تتميّز الأجواء في الغرب بهذه الأريحية، فالفرنسي الكهل (كريستوف) في رواية (رقص) يتمتّع بهذه الأريحية والانطلاق، يردّد الأبيات الشعرية، ويتمايل معها طربًا على الرغم من كبر سنّه[٥].

والراوي في هذه الرواية يشعر بالأريحية في ديار الغرب؛ فيضحك بصوت عالٍ دون أن يخجل من نفسه حين وجد ما يستدعي الضحك، يقول: "في اليوم الثاني ضبطت نفسي تضحك على المهرج بصوت عال في ساحة الباستي ولم أخجل من إنسان"[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٧.

(٢) انظر: (شرق الوادي)، ص٢٣٠.

(٣) (عيون قذرة)، ص١٣٠.

(٤) انظر: (رقص)، ص٥٩.

(٥) انظر: (رقص)، ص٦٥.

(٦) المصدر السابق، ص٣١.

ولعلّ هذه الأريحية هي التي سمحت للراوي أن يتعلم ويمارس فنون الرقص المختلفة، ويشعر بالانطلاق، ولعلّ تلك إحدى الرؤى الرئيسة التي تريد الرواية إيصالها.

وأمّا (الجوهرة) في رواية (الوارفة) فقد أُعجِبت بهذه الأريحية والانطلاق حول شلالات (نياجرا): "البشر في بلدة (نياجرا) مهرولون بالسراويل القصيرة تحت سطوة بهجة عجيبة... وهي الصحراوية الجافة تتأمل هذه الحضرة المهيبة من مقاعد المتفرجين"(١). إنها تُعجَب بهذه الانطلاقة والبهجة، لكنها لا تستطيع أن تكون جزءًا منها أو أن تشارك فيها، بل تبقى - فحسب- في مقاعد المتفرجين؛ فتراقب البهجة من موقع الانفصال عنها.

ومن القيم الغربية المعجبة -كذلك- المصداقية في الإعلام الغربي إلى حدٍّ كبير، فعند الأحداث الكبرى التي يكثر فيها التعتيم الإعلامي كان الناس يفزعون إلى الإذاعات الغربية، وبخاصة (إذاعة لندن) لاستقاء المعلومات كما نرى في رواية (رقص)(٢)، وفي رواية (٢٣ يومًا)(٣).

ويحرص الفرنسيون على أدقّ التفصيلات، والاحتفاظ بالمعلومات لفترات طويلة؛ ممّا يسهّل على الباحثين الرجوع إليها كما تؤكّد رواية (رقص)(٤).

وهذه المعلوماتية والمصداقية تجعل الباحثين الغربيين أكثر حرصًا على الموضوعية في بحوثهم، والتخفّف من الذاتية، والانطباعية؛ "يحاولون الفهم فلا يبجلون أسلافا

(١) (الوارفة)، ص٣٨.
(٢) انظر: (رقص)، ص١٩٥.
(٣) انظر: عبد الله سعد، (**٢٣ يومًا**)، دار الفكر العربي، الدمام، ١٤٣٣ه، ص٩٩.
(٤) انظر: (رقص)، ص٢٠٥.

ويلعنون آخرين كما يفعل كثيرون منا إلى اليوم"[١].

كلّ ذلك يجعل الغرب مثقّفًا واعيًا - كما تجلّيه الرواية السعودية- وفي وصفٍ له دلالته الرمزية تصف رواية (الحزام) - في عتباتها- الشعوبَ الغربيةَ بأنها "شعوب قارئة"[٢].

والغرب لذلك يقدّر العلم والعلماء؛ ففي (مدريد) وجد (الشيخ صفوان) التقدير الكبير والاحتفاء حين وفد على إسبانيا لتقديم بعض المحاضرات؛ فأعجب وثمّن "هذا التقدير العلمي للتراث الإنساني وللفكر الإنساني دون الارتباط بالجنس والعرق واللون والانتماء"[٣].

إنه يحترم الآخر ويقدّر الاختلاف، ويستوعب وجهات النظر المختلفة كما تؤكد رواية (بنات الرياض)[٤].

وتصوّر رواية (دفء الليالي الشاتية) احترام تعدّد وجهات النظر، وإتاحة الفرصة لكل صاحب رأي ليعبر عن رأيه، وذلك حين سمحت الجامعة للطالب (عبد المحسن) بإقامة محاضرة عن الإسلام، وسماحته، وقِيَمه؛ وذلك ردًّا على محاضرة (د.بهاء حنّا) الذي هاجم الإسلام، وشوّه صورته[٥].

وذلك ناتج عن تميزه بالانفتاح تجاه الآخر، ويزيد هذا الانفتاح في بعض المجتمعات الغربية أكثر من غيرها، فالشباب الفرنسي يتميّز بـ"الانفتاح على كل شيء"[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص٧٠.

(٢) أحمد أبو دهمان، (**الحزام**)، دار الساقي، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠٢م، ص١١.

(٣) (السنيورة)، ص٥٤.

(٤) (بنات الرياض)، ١٨٧.

(٥) انظر: (دفء الليالي الشاتية)، ص٥٠.

(٦) (رقص)، ٨١.

و(كوبنهاجن) "من أفضل المدن الإسكندنافية فسكانها أكثر انفتاحًا وأسهل في تكوين العلاقات"[١].

وذلك كلّه يعطي الغربيين أفضلية في التعامل مع الآخرين، ففي رواية (لحظة ضعف) لم تكن (ليزا) الأمريكية تتميز في الجمال على (سهام) ابنة البلد، "لكنها لطيفة مرحة قادرة على اقتناص إعجاب الآخرين"[٢]، وفي رواية (بنات الرياض) نجد موظفي البنك البريطانيين ودودين في تعاملهم مع (سديم)[٣].

والشعوب الغربية شعوب تتميّز بالجدّية والحيوية والنشاط، فـ"الأمريكان... أناس في غاية الدقة، وغاية النشاط، وغاية الصرامة... هكذا اعتقد جابر فيهم"[٤]. ولا شك أنّ استدراك الراوي هنا بهذه العبارة " هكذا اعتقد جابر فيهم" له دلالته؛ فهو يريد نسبة هذا الاعتقاد إلى (جابر)، وأنّ ذلك اعتقاده وتصوّره الذي قد يكون صائبًا، وقد لا يكون كذلك.

وهؤلاء الأمريكيون يقدّرون من يتحلّى بهذه الجدّية والنشاط؛ فقد ارتفعت منزلة (جابر) لدى رؤسائه الأمريكيين في الشركة حين لمسوا فيه هذه الجدّية[٥].

وتصوّر رواية (لحظة ضعف) نشاط (السيدة الأمريكية كلارك)، وحيويتها على الرغم من تقدّمها في السنّ[٦].

---

(١) عبد العزيز الصقعبي، (**حالة كذب**)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٧.

(٢) (لحظة ضعف)، ص١١٤.

(٣) انظر: (بنات الرياض)، ص١١٨.

(٤) (شرق الوادي)، ص١٥٩.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص١٦٨.

(٦) انظر: (لحظة ضعف)، ص٤٣.

وتميّز الرواية أكثر فتحدّد أنّ لدى الأمريكيين أماكن للجدّ وأخرى للّهو؛ ولذا كان الشاب المبتعث (طارق) يحنّ إلى أجواء الكلية التي يدرس فيها هناك لأنها أجواء جادّة، تبعده عن أجواء اللّهو والمجون التي يعانيها في منزل الأسرة التي يعيش معها[١].

والشعوب الغربية لكلّ ذلك شعوب متحضّرة، يسود فيها القانون؛ لذا فقد استطاع (الشيخ صفوان) في رواية (السنيورة) أن يقاضي الصحفيّة اليهودية التي شوّهت صورته، وحصل بذلك على حقّه وعلى تعويض مالي كبير[٢].

وتُعجَب (ريحانة) في رواية (اليهودي والفتاة الغربية) بالقانون الغربي، ولكنها تتمنّى لو أنه كان أكثر عدلًا[٣].

ومع هذه الدقة، والجدّية، والعدالة، لا تغفل الرواية السعودية تصوير (الإنسانية) المتوافرة لدى بعض الغربيين، فتصور رواية (٢٣ يومًا) الأمريكي المسيحي (مايكل) الذي يتعاطف مع الفلسطينيين من منطلق إنساني، ويلفّ دومًا رأسه بالشال الفلسطيني، بل ويخرج في مظاهرة تؤيد الحق الفلسطيني، وتهتف ضد دولة (إسرائيل) إبّان عدوانها الغاشم على (غزة)[٤].

وتصوّر رواية (مشرّد بلا خطيئة) إنسانية الفرنسي (جاك رونييه) الذي كان يعمل ضمن منظّمة (الصليب الأحمر الدولي) لتقديم الغوث والإعانة للمنكوبين عقب مذبحة (دير ياسين)[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص٥٥.

(٢) انظر: (السنيورة)، ص٤٨-٤٩.

(٣) انظر: (اليهودي والفتاة العربية)، ص٤٠٠.

(٤) انظر: (٢٣ يومًا)، ص١١٤، وما بعدها.

(٥) انظر: (مشرّد بلا خطيئة)، ص٤٨.

وتصوّر رواية (اليهودي والفتاة العربية) إنسانية الطبيب الفرنسي المسيحي المتديّن الذي عالج (ريحانة)، وساعدها على الهرب من قبضة اليهود القتلة على ظهر الباخرة[١].

وفي موضع آخر من الرواية نفسها تصوير لإنسانية العجوز الإيطالية المسيحية المتديّنة أيضًا (ماريا) التي تبنّت (ريحانة)، وساعدتها في أن تعود إلى الحياة من جديد، ومنحتها الرأفة والحنان، حتى لقد قالت لها (ريحانة): "قطعة من النور أنت.. ومن الصدق والصفاء خلقت"[٢].

الماء والخضرة والوجه الحسن:

إنّ الشرقي حين يزور البلدان الغربية تبهره -أوّلَ ما تبهره- الجوانب الشكلية الظاهرة؛ فتلك هي أوّل ما يصافح نظره.

"إن السفر إلى مكان فيه الماء والخضرة والوجوه الجميلة من كل لون حلم ينام ويصحو عليه كثيرون"[٣]. هذه وصية الطبيب المعالج للراوي في رواية (رقص)، وهي - كما نرى- وصية تركز على الأمور الشكلية: المناظر الطبيعية، والوجوه الجميلة.

وتصوّر رواية (حالة كذب) اجتماع هذه العناصر الثلاثة: (الخضرة، والماء، والوجه الحسن) بـ "مركّب كيميائي مكوّن من ثلاثة عناصر" له تفاعلاته القوية على الرجل الذي يسافر لأوّل مرة من مجتمعنا؛ فيصاب عند ذلك بحالة من الانبهار، بل صدمة قوية تجعله يعيش مرحلة صمت! إنه صمت الانبهار[٤]!

وفي رواية (السنيورة) كان منظر جبال (الألب)، والقرى المحيطة بها يبعث الطمأنينة

(١) انظر: (اليهودي والفتاة العربية)، ص٣٦٦، وما بعدها.
(٢) المصدر السابق، ص٤١٦.
(٣) (رقص)، ص٢٢.
(٤) (حالة كذب)، ص٢٢- ٢٣.

في (الشيخ صفوان)؛ فيستجمّ نفسَه، وتفيض مشاعره بالجمال[١].

ويتعاطف الراوي في (رقص) مع الريف الفرنسي "الذي ظلّ يجاهد كي يبقى بمنأى عن عنف المدن وصخبها"[٢].

ويصف بلدة (رويان) الفرنسية التي "تستند إلى هضبة وتطلّ على بحر وخليج وغابة"[٣].

وتشفّ نفسه مع هذه المناظر البديعة حتى لَيشعر أنه "يطير"[٤].

وتنبهر (الجوهرة) بالمشهد حول شلالات (نياجرا)، وكأنه "فردوس انتهت الملائكة للتو من صنعه، التلال الخضراء تنسدل على المشهد، وأشجار هائلة مشرئبة تحمل سماء العالم، ومع الاقتراب من (نياجرا) يبدأ هدير الماء في الجلجلة كغناء مارد عظيم"[٥].

وفي رواية (العصفورية) تنبعث البحيرات شماليّ (إنجلترا) ببريقها الوضّاء وإشعاعاتها فتتمثّل شعرًا في نفوس الشعراء، وأدبًا على ألسنة الأدباء[٦].

ومع كلّ ذلك الجمال وتلك الشاعرية فإنّ المناظر البديعة (الفردوسية) تبعث شيئًا آخر في نفوس شخصيات الروايات السعودية، إنها تبعث في نفوسهم الموازنة بين الغرب الريان بالماء والخصب، والشرق الصحراوي الظمآن!

---

(١) انظر: (السنيورة)، ص١٦، ٢٩.

(٢) (رقص)، ص١١٧.

(٣) (رقص)، ص٥٧.

(٤) المصدر السابق، ص٥٧، ٦١.

(٥) (الوارفة)، ص٢٣٦.

(٦) انظر: (العصفورية)، ص١٦٣.

تحضر هذه الموازنة في نفس (الجوهرة) في رواية (الوارفة) حين توازن بين أثر الخصب والرواء في نفوس ساكنيه وأثر الظمأ والجفاف، و"تتساءل: سكان هذا المكان الذي ظل الماء يهدر في آذانهم طوال هذه القرون بالرواء والخصب، هل لهم نفس الخريطة البشرية التي تملكها هي كصحراوية لا يزورها المطر إلا في أوقات بعيدة وشحيحة"[١]؟

وإذا كانت (الجوهرة) قد اكتفت بالتساؤلات، فإنّ (الراوي) في (رقص) ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث بهرته الطبيعة الفرنسية التي وجدها "بساطًا أخضر يخترقه أكثر من ألف نهر"[٢]؛ فذُهِل، وتعجّب من (حماقة) الأسلاف حين استقروا في أحضان الصحراء[٣]!

وما زالت (رقص) ترسّخ هذه الفكرة (فكرة الموازنة بين خصب ديار الغرب، وجفاف الصحراء وقسوتها) على امتداد صفحاتها حتى بلغت الخواتيم التي أكّد عندها صديق الراوي الذي يعدّ بالنسبة إليه ملهمًا أنّ "الصحراء طريق عبور أو دار فناء. هكذا كانت ولن تغير قوانينها من أجل عيون أحد"[٤]. والحكمة إِذَن -كما يرى- تقتضي مغادرتها والرحيل عنها إلى الأبد.

والطبيب الذي يعالج الراوي من آلامه وخيباته يقول له -وهو يودّعه قبل سفره إلى فرنسا-: "من يحبك سيدعو لك. سافر بالسلامة.. الله لا يردّك"[٥].

ولذا فالراوي حين كان في المطار كان يشعر بقرب الفَرَج بالمغادرة، ويستخدم

(١) (الوارفة)، ص٢٣٨.
(٢) (رقص)، ص١٧٢.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص١٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص٢٨٥.
(٥) المصدر السابق، ص٢٦.

مفردة (الهرب): "كلنا نريد الهرب، وقد قرب الفرج"[١].

وتأتي هذه المفردة (الهرب) في رواية (حالة كذب)، حيث سُمِّي السفر إلى تلك الديار: "رحلة هروب"[٢].

وإلى جانب الخُضرة والرُّواء يأتي الضلع الثالث من المثلث: (الوجه الحسن)، والوجه هنا رمز للجمال الجسدي.

والجمال الجسدي لدى الآخر الغربي ثيمة لا تكاد تخلو منها رواية من تلك التي ورد فيها ذكر للغرب. إنها (عقدة) كما يقول (البروفيسور) في رواية (العصفورية) لا يكاد ينفكّ أحدٌ عنها[٣]!

أمريكا هي "المحيط الزاخر بالحياة والأسماك من كل لون... مئات من الفتيات ذوات الجمال المتعدّد الألوان والأشكال..."[٤]. هكذا يحدّث (سليمان) نفسه، وهو مستلقٍ على سريره في أمريكا منبهرًا ومندهشًا من كلّ ذلك الجمال، وتنوّعه.

ولم يكن (بندر) أقلّ منه انبهارًا بكلّ ذلك الجمال؛ حتى إنه تحسّر على السنوات التي قضاها من عمره دون أن يتمتع بمشاهدة هذا الجمال[٥].

وفي (كوبنهاجن) يعجز المرء أن يرى امرأة قبيحة، كما تصوّر رواية (حالة كذب)[٦].

---

(١) المصدر السابق، ص١٧.

(٢) (حالة كذب)، ص٩.

(٣) انظر: (العصفورية)، ص٥٨.

(٤) (دروس إضافية)، ص٢٣.

(٥) المصدر السابق، ص٨.

(٦) انظر: المصدر السابق، ص٤١.

إنّ المرأة الغربية في المخيلة العربية امرأة متكاملة الجمال: "لديها كلّ مقاييس الجمال والفتنة"[١]، كما يقول (الشيخ صفوان) في رواية (السنيورة) واصفًا إحدى النساء الغربيات. ولفظ (كلّ) هنا يختزل تكامل الجمال الجسدي لدى المرأة الغربية.

ومن شدة الانبهار والتعلّق بهذا الجمال يرد تفصيل لجزئياته الدقيقة التي لا تكاد تغادر صغيرة ولا كبيرة من ملامح ذلك الجمال.

والبياض هو الملمح الأكثر تردّدًا والأشدّ إبهارًا بين بقية الملامح –كما تصور الرواية السعودية– إنه (بياض ناصع) بهر الشباب الثلاثة المبتعثين في رواية (دروس إضافية)[٢]، وبهر (جابرًا) في رواية (شرق الوادي)[٣]، وبهر حتى الشباب المتطرّفين في رواية (ريح الجنة)[٤].

والشعر الأشقر يبهر الأعين – كذلك– من أقوام لا تنتشر بينهم ذوات الشعر الأشقر. بهر شَعرُ (ماريانا) الأشقر (الشيخَ صفوان) في رواية (السنيورة)[٥]، وتصفه رواية (شرق الوادي) بأنه شعر ذهبي[٦]، وتبالغ رواية (ريح الجنة) حين تماهي بين الشعر الأشقر والذهب على سبيل الاستعارة: "الذهب المنسدل على أكتافهن"[٧].

والعينان (الزرقاوان) سهمان ينفذان القلوب، نفذا قلب (الشيخ صفوان) حين

(١) (السنيورة)، ص٩، والخط من وضع الباحث.
(٢) انظر: (دروس إضافية)، ص٨.
(٣) انظر: (شرق الوادي)، ص١٧٥.
(٤) انظر: (ريح الجنة)، ص٧٨.
(٥) انظر: (السنيورة)، ص٩.
(٦) انظر: (شرق الوادي)، ص١٧١.
(٧) (ريح الجنة)، ص٧٨.

رآهما أو رأتاه في (السنيورة)[١]، وصدمتا (فيصلًا) في رواية (عيون قذرة): "العيون الزرقاء التي لا نراها سوى في إعلانات المجلات... نراها هنا في كل مكان"[٢]. إنها صدمة مواجهة الصورة المثالية للجمال - كما يتخيلها الشاب- على أرض الواقع الملموس لأولئك الشباب. وتحضر هنا الصورة التلفزيونية التي رسمت معالم الجمال بشكل مختلف عمّا كان يألفه العربي؛ فما أكثر ما تغنّى العربي بالمرأة الحَوْراء، "(والحَوَر)... شدة بياض العين في شدة سوادها. وامرأة (حَوْرَاءُ) بَيِّنَةُ (الحَوَرِ)"[٣].

وما أكثر ما امتدح العربي الشعر الأسود الفاحم السواد، ولكنّ توارد الصورة التلفزيونية، وما تملكه من إمكانات هائلة غيّر مقاييس الجمال[٤]؛ فَحَلّ الشعر الأشقر مكان الأسود، وحلت العيون الزرقاء محل الحَوراء!

واللباس العاري المتهتّك في الغرب يبهر أيضًا كما رأينا في رواية (شرق الوادي) التي تصور نساء الغرب "كاسيات عاريات"[٥]، وفي رواية (دروس إضافية) تظهر النساء بملابس قصيرة تُظهر أكثر ممّا تُخفي[٦]!

إنها لعبة الستر والكشف: الإخفاء الذي يُظهر، والستر الذي يكشف! وهذا ما نجده في رواية (غيوم الخريف) حيث تتحرك العين عبر التفصيلات الجسدية للمرأة الغربية التي "كانت ترتدي فستانًا شفافًا أصفر مخرمًا يكشف عن تكوينها أكثر مما

(١) انظر: (السنيورة)، ص٢٥.

(٢) (عيون قذرة)، ص٣٩.

(٣) الرازي، (**مختار الصحاح**)، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٨٤.

(٤) حول تأثيرات الصورة التلفزيونية في تغيير مقاييس الجمال؛ انظر: عبد الله الغذامي، (**الثقافة التلفزيونية**)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٤م، ص١١٥، وما بعدها.

(٥) (شرق الوادي)، ص١٥٩.

(٦) انظر: (دروس إضافية)، ص٧.

يخفي.. ها هو صدرها ينهض شامخًا قابضًا على وسطها النحيل وقدميها الصغيرتين [هكذا] تنتعلان خفًّا لامعًا"[١].

وممّا يلفت نظر الباحث هنا هذا التتبّع للأعضاء الجسدية عضوًا عضوًا! ونجد لهذا أمثالًا في كثير من الروايات، ففي رواية (السنيورة) وصفٌ تفصيلي دقيق للفتاة الإيطالية (ماريانا): "ساعدان رقيقان مهيئان للالتفاف والاحتضان"[٢]. ولم تُغفل الرواية شيئًا من الوصف حتى صوت (ماريانا)؛ فقد وصفته بأنه: "ينبوع حنان متدفق"[٣].

ويرد في رواية (دروس إضافية) هذا الوصف التفصيلي: "هذه شقراء وعيناها خضراوان وهذه شعرها أحمر وعيناها سوداوان وهذه بيضاء ناصعة البياض قوامها ممشوق ورجلاها ملفوفتان كأنهما عمودان صنعا من بلور شفاف"[٤]. وهنا يأتي تتابع هذه الأوصاف وتدفقها دون وضع علامات ترقيم من الفواصل أو غيرها حكايةً لحجم الانبهار، ومدى الذهول.

وأمّا ما يلفت النظر أكثر في هذه النصوص فهو هذا التتبّع لتفصيلات الجسد، وهو ما يبدو أنه نسقٌ مغروس في التفكير العربي سمّاه باحث مغربي[٥] (التعضية) أي "وصف الأعضاء مع تشبيهها... من أجل الوصول إلى جسد مثالي"[٦]. وذلك ما نراه في هذه الروايات التي تصف الأعضاء وتشبّهها تشبيهات مكثّفة؛ وكلّ ذلك يحكي

(١) إبراهيم الناصر الحميدان، **(غيوم الخريف)**، نادي القصة السعودي- جمعية الثقافة والفنون، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٦.

(٢) (السنيورة)، ص٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص١٦.

(٤) (دروس إضافية)، ص٨.

(٥) د. جمال بوطيب.

(٦) (نحن والآخر – تجليات جسدانية في الفكرين العربي والغربي)، ص٤٨.

تصوّر المخيلة العربية جسد المرأة الغربية جسدًا مثاليًّا –وهو ما قد لا يكون واقعيًّا بالضرورة– وما ذاك إلا لأجل شدة الانبهار الذي يولّد هذا التصوّر المثالي للجسد الغربي!

وللمرأة كذلك نصيبٌ من هذا الانبهار بالجسد الغربي، ولكنه في الغالب انبهارٌ عبر الشاشة بالممثلين، وأبطال المسلسلات.

وممّا وجده الباحث أنّ ذلك لم يردْ إلا في الروايات النسائية[١]؛ ففي رواية (سعوديات) تؤكّد (جود) أنّ ممثلها المفضّل هو (جورج كلوني)، وتتفحص الوجوه في (لندن) بحثًا عن شبيه له؛ لأنه –كما تؤمن– "أوسم الرجال على الإطلاق"[٢].

وفي رواية (عيون الثعالب)، كان (ترافولتا) بطل فيلم (حمّى ليلة السبت)، نموذج الوسامة لدى (مريم)، التي حاولت أن تتصوّر أنّ بعض صفاته الجسدية تتنزّل على معشوقها(سعيد)[٣].

وتصوّر رواية (الوارفة) بنات ثانوية في (الرياض)، وهنّ يتخطفن المجلات المصوّرة التي يحتلّ صفحاتها "أبطال إيطاليون في غاية الوسامة، (فرانكو كاسبري– وفرانكو داني– وكاتيوشا) يعصفون بالأحلام الحبيسة"[٤].

ورواية (عيون قذرة) – وحدَها– تصوّر تجربة حية (أي ليست عبر الشاشة) للراوية (سارة) التي أبهرتها وسامة (روبير) الشاب الذي التقته في (لندن): "إنه شاب

(١) أي تلك الروايات التي كتبتها النساء.

(٢) سارة العليوي، (**سعوديات**)، طبعة المؤلفة، توزيع فراديس، البحرين، ط٥، ٢٠١٢م، ص٥٣.

(٣) ليلى الأحيدب، (**عيون الثعالب**)، رياض الريس للنشر، بيروت– لبنان، ط١، حزيران/ يونيو، ٢٠٠٩م، ص١٢٥– ١٢٦.

(٤) (الوارفة)، ص٧٠.

وسيم، بل جميل، أبيض البشرة، عيناه بحيرتان من عسل"[١]. وهذه التجربة الحيّة كانت نهايتها السقوط؛ حيث استطاع (روبير) إغواء (سارة) على الرغم من أنها كانت تحاول التمسّك بحجابها وقيمها، ولكنه استطاع اقتحام عالمها، ولم يغادرها حتى "فقدت كلّ شيء.. الدين والشرف والمستقبل"[٢].

المرأة الغربية الإيجابية:

ممّا لفت انتباه الرواية السعودية، وبخاصة الرواية النسائية السعودية إيجابية المرأة الغربية وحضورها، فقد أُعجِبت الراوية (ليلى) في رواية (عيون قذرة) بحال المرأة الغربية؛ حيث إنها "ذات كينونة واستقلال كالرجل تمامًا تمشي دون أن يضايقها أحد، تتسوق دون أن يتطفل عليها أحد"[٣]. وتمضي الراوية في الموازنة بين حال تلك المرأة الغربية، وحال المرأة هنا، حيث المرأة هنا لا تسلم من المضايقات والمعاكسات حين تخرج للتسوق، أو لقضاء بعض حاجاتها.

ولا تفتأ الرواية تعقد هذه الموازنات على امتداد صفحاتها، فالمرأة الغربية كما تتمثل في شخصية والدة (كاتيا) ذكية تحسب كلّ شيء بميزان الربح والخسارة حتى في علاقاتها الاجتماعية، بينما في الشرق يقيد المرأة خوفها ورهبتها من المجتمع، وتدفعها عاطفتها وغريزتها أحيانًا لتكون في سياق الامتهان والخسارة التي لا يعقبها ربح[٤]!

وفي رواية (الوارفة) تنبهر (الجوهرة) بشخصية زميلتها في العمل أخصائية العلاج الطبيعي النيوزلندية (أدريان) فهي المرأة ذات الإرادة الغربية القوية "المنضبطة والمقدسة

(١) (عيون قذرة)، ص١٣٥.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٣.
(٣) (عيون قذرة)، ص١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق، ص٧٩- ٨٠.

للعمل دائما خطواتها في ممرات المستشفى واسعة ثابتة"[١].

تعجب كذلك بتوافق (أدريان) النفسي، وانسجامها مع ذاتها حيث "تبدو أحجار روحها مصفّفة ومتوازية بعناية، كأنها فسيفساء إيطالية جذابة... روحها تنزلق داخل جسدها بانسجام واطمئنان"[٢].

وفي موضع آخر تُعجَب (الجوهرة) بشخصية (الطبيبة جيان) الكندية التي تبدو "منفتحة كسلة ورد تنسكب لطفًا على من حولها"[٣].

يعجبها في المرأة الغربية ثقتها بنفسها، وانسجامها النفسي، وفي عبارة ذات دلالة تلفت نظرَها (خطواتُها الواسعة الثابتة).

وفي كل تلك المواضع، وعلى امتداد الرواية توازن (الجوهرة) بين نفسها وأولئك الغربيات في أسلوب الحياة، وطبيعة الظروف والملابسات الاجتماعية والنفسية التي كوّنت شخصية المرأة الغربية، وتلك التي كوّنت شخصية المرأة الشرقية.

الغربي العاشق للشرق:

ترد في الرواية السعودية نماذج وافرة لأولئك الغربيين المحبّين لسحر الشرق، والروح الشرقية: تخبرنا رواية (الحزام) عن نساء فرنسيات أحببن قرية (حزام) وعادات المشرق وتراثه[٤].

وفي رواية (ريح الجنة) تعشق عجوز أمريكية الشرق لبساطته وبراءته، في مقابل

(١) (الوارفة)، ص٧.

(٢) المصدر السابق، ص٨.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤٢.

(٤) انظر: (الحزام)، ص١٦٠.

مادية الحضارة الغربية[١].

وترى الأمريكية (إيثل) -في رواية (شرق الوادي)- الشرقيين فلتة الزمان في العشق، وفنون الحب[٢].

وحين تغادر (إيثل) السعودية إلى بلادها، نجدها تحنّ وتشتاق إلى رمال الصحراء[٣].

وتنبهر (ماريانا) الإيطالية في رواية (السنيورة) بفن العمارة الشرقي، وتتمنّى السكنى في بيت على هذا الطراز[٤].

وتؤمن (ماريانا) بالصحراء الشرقية، وتشعر أنها تبعث في نفوس أهلها الفلسفة، والرومانسية[٥].

ومثلها (سارا) الأمريكية في رواية (دروس إضافية) حيث تشعر أنّ الصحراء عالم مجهول يثير الرومانسية، والغموض، والخيال[٦]. وتتخيل (بندرًا) -الشاب السعودي الذي أحبها وأحبته- فارسًا سيحملها على فرس بيضاء إلى الصحراءِ رمالِها وخيامِها وعالمِها[٧].

(١) انظر: (ريح الجنة)، ص٤٨.
(٢) انظر: (شرق الوادي)، ص١٨٨.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص٢٢٤.
(٤) انظر: (السنيورة)، ص٦٤، ٧٢، ٧٥.
(٥) انظر: المصدر السابق، ص٣١.
(٦) انظر: (دروس إضافية)، ص٩٢.
(٧) انظر: المصدر السابق، ص١٩٠.

وأيًّا ما كانت تجليات الآخر (سلبية أم إيجابية)؛ فإنّ الذات تفيد من الآخر، وترى ذاتها في مرآته؛ لأنّ الآخر –كما تقدّم في هذا البحث– يساعد على اكتشاف الذات؛ من خلال تموقعها من الآخر، ومن خلال قياس الذات في مقياس الآخر.

نجد التصريح بهذه التجربة المهمّة في رواية (الوارفة) حين عاشت (الجوهرة) في (كندا) بضع سنوات تعلمت من خلالها كيف تعيد اكتشاف ذاتها، وكيف تنظر إلى ذاتها في مرآة الآخر؛ "كأنني أتحدث عن امرأة أخرى، كأنني أعيد اكتشاف تلك التي رافقتني في الظل لسنين طويلة"[(١)]. واستخدام الشخصية هنا لموقع الانفصال حيث تتحدّث عن ذاتها وكأنها امرأة أخرى، وتستخدم اسم الإشارة للبعيد (تلك)، وتوصّف مكان (تلك) بأنه كان في الظلّ، وكل ذلك يرسّخ هذا الانفصال بين الشخصية وذاتها؛ في محاولة للاكتشاف والمساءلة والمحاورة.

وإذا كان الاكتشاف هنا للذات الفردية، فإنّ روايات أخرى قد صوّرت اكتشاف الذات (الجماعية)، ونقدها، واكتشاف عيوبها، ومحاولة اقتراح سبل النهوض بها، من خلال النظر إلى الذات في مرآة الآخر.

تصوّر رواية (دروس إضافية) الطلبة العرب الدارسين في الولايات المتحدة الأمريكية، وآمالهم وأحلامهم باتجاه الوحدة العربية[(٢)]، ولعلّ ذلك كان – وإن لم تصرّح به الرواية– بسبب تجربتهم في الغرب، واحتكاكهم بالحضارة الغربية ممثّلةً في صورتها الأمريكية.

وترد هذه التجربة بصورة أكمل، وربما أكثر نضجًا، وأنضج وعيًا في رواية (العصفورية) فحين وجد (البروفيسور) بعض الشخصيات الغربية تُعنَى بدراسة أدب

(١) (الوارفة)، ص٢٦٥.

(٢) انظر: (دروس إضافية)، ص٨٧.

(شكسبير) عبّر عن شعوره: "شعرت بتأنيب الضمير لجهلي الأدب العربي"[١]. ومن ثَمّ لازم المكتبات، وأكبّ على أمّهات المؤلفات والدواوين العربية، وحفظ ديوان (المتنبي) بيتًا بيتًا.

وحين رأى - هو- ومَن حوله من الشباب الدارسين في أمريكا بعض مظاهر التقدّم والتحضّر ساءلوا أنفسهم وعادوا إلى ذاتهم الجماعية (العربية) لاكتشافها ومساءلتها، وصارت لديهم مساحة للحُلُم: "كنا،جميعًا، نحلم بولايات عربية متحدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية... كانت أحلامنا كبيرة"؛ وأمّا سبب شعورهم بمشروعية تلك الأحلام فهو رؤيتهم لواقع الآخر، وما استطاع تحقيقه، وما نجح في إنجازه: "كنا نقول: فعلها الأمريكان، فلماذا لا نفعلها نحن؟"[٢].

ومن الملحوظات المهمّة هنا أنّ الحديث جاء بضمير الجمع بـ(الأنا الجماعية): (كنّا) وأكّد هذه الجماعية بالكلمة المعترضة (جميعًا)؛ لتأكيد الهمّ المشترك، والرؤية الموحّدة التي تنطلق من (الأنا الجماعية)؛ لتعبر عن الشخصية الجماعية، لا عن شخصية فرد أو مجموعة صغيرة.

وتمتدّ (الموازنة) بين الذات والآخر في تفاعل مهمّ لمحاولة اكتشاف الذات في مرآة الآخر: "كنا نقارن ما تركناه خلفنا بما نراه أمامنا فتعتصرنا اللوعة"[٣]. ثم يمضي يعدّد بعض مظاهر الخدمات الصحية، والسلاسة الإدارية لدى الآخر مع موازنتها بما لدى الذات (العربية عمومًا) من ضعف الخدمات الصحية، وتحكّم البيروقراطية، وشيوع الرشاوى والمحسوبيات.

---

(١) (العصفورية)، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص٥٤.

كانوا واعين بحجم التحدّي، وكانوا –أيضًا– معتزّين بشخصياتهم الحضارية، منتمين إلى ذواتهم، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه منفتحين على الآخر في تفاعل جدلي يحاول الإفادة من مكتسبات الآخر دون الذوبان فيه: "لم نشعر قطّ بمركّب نقص ولا سحرتنا تقاليد أمريكا... لم نكن نعاني من عقدة الخواجة"[(١)]. ثم يمضي ليعدّد مظاهر الضعف والنقص لدى هذا الآخر متنبّهًا ومنبّهًا إليها، محترزًا منها؛ فهو أنموذج للتفاعل الجدلي الذي يدرك العيوب قبل الميزات، ويتنبّه إلى المساوئ قبل الحسنات، ويشاهد الإخفاقات قبل النجاحات؛ ليبني من خلال ذلك طريقًا ثالثًا يجمع حسنات الذات إلى حسنات الآخر، ويتلافى سيئات الذات قبل سيئات الآخر.

(١) المصدر السابق، ص٥٧.

الخاتمة

يحضر (آخَرنا) في الرواية السعودية إيجابيًّا في الأقلّ، سلبيًّا في الأكثر.

تصوّره الروايات السعودية في صور شتّى: ما بين صور سلبية، وأخرى إيجابية تتبّعها هذا البحث، وتناولها بالدّرس والتحليل..

تبرُز القيم الغربية من جهة قيمًا ثقافيةً مُعجِبةً تَبهر، وتُغري، وتُحرّض..

فيهاجر إليها المهاجرون هجرة واقعية أو هجرة فكرية قِيَمية.

ومن جهة أخرى يبرُز الانحلال الأخلاقي، والتفكّك الاجتماعي، والعدوان العسكري سيئات يستوجب هذا الآخر بها الرفض، والمواجهة، وربما الانتقام.

وهاهنا تتجلّى في المدوّنة الروائية السعودية رؤيتان متدافعتان: رؤية تَتّبع سَنَنَ الآخر، وتسير في ركابه، وتتمثّل خطاه تغذّيها هزيمة نفسية، وإحباط داخلي، وتبعيّة فكرية. ورؤية أخرى ترفضه بالكلّيّة، وتُقصيه بالجملة، تستسلم لنسقيّة الرفض، والإقصاء، والعداوة.

وبين هاتين الرؤيتين تتجلّى رؤية متوازنة تتسامى على نسقيّة الطرفين، وتتعالى على حَدّيّة الحَدّين؛ فتتفاعل مع الآخر تفاعلًا جدليًّا: يتنبّه إلى عيوبه الاجتماعية، ويتفطّن إلى سَقَطاته الأخلاقية، ويَحْذر انحرافاته الفكرية. ولكنه مع ذلك يتلقّى إنجازاته الحضارية، ويتجاوب مع إبداعاته المَدَنية، ويُفيد من خِبْراته العَملية.

الاختلاف كان، وسيبقى: "وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" (هود: ١١٨)، ولكن الاختلاف – في حدّ ذاته– لا يستلزم العداء بالضرورة، بل قد يحقّق التكامل الإيجابي، والتفاعل المتبادل.

إنّ هذه الرؤية الجدلية لا ترى الآخر طيفًا واحدًا، ولا تقف منه موقفًا نهائيًّا، وإنما تتفهّم أنّ الآخر مكوناتٌ شتّى كما الذات، وأطيافٌ متفاوتة السمات، وَرَدَ النصّ على

ذلك في القرآن الكريم: "لَيْسُوا سَوَاءً..." (آل عمران: ١١٣). والتاريخ شاهدٌ لا يكذب، ولا يجامل أو يتحامل؛ ومن هنا فإنّ الرفض الكامل، والتبعيّة العَمْياء موقفان نسقيّان يرفضهما العقل، ويدحضهما المنطق، ويأباهما الواقع.

المصادر والمراجع

أ- المصادر:

إبراهيم الناصر الحميدان، (**غيوم الخريف**)، نادي القصة السعودي- جمعية الثقافة والفنون، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

أميمة الخميس، (**الوارفة**)، دار المدى، دمشق- سورية، الطبعة الثانية، ٢٠١٠م.

تركي الحمد، (**ريح الجنة**)، دار الساقي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

تركي الحمد، **رواية (شرق الوادي - أسفار من أيام الانتظار)** دار الساقي، بيروت- لبنان الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م.

رجاء الصانع، (**بنات الرياض**)، دار الساقي، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.

سارة العليوي، (**سعوديات**)، طبعة المؤلفة، توزيع فراديس، البحرين، الطبعة الخامسة، ٢٠١٢م.

عبد العزيز الصقعبي، (**حالة كذب**)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

عبد الله سعد، (**٢٣ يومًا**)، دار الفكر العربي، الدمام، ١٤٣٣هـ.

عبد الله العريني، (**دفء الليالي الشاتية**)، طبعة المؤلف، توزيع دار إشبيليا، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

عبد الوهاب آل مرعي، (**اليهودي والفتاة العربية- قصة الحب الخالدة**)، مؤسسة العبيكان، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

عصام خوقير، (**السنيورة**)، تهامة، جدة- السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

غازي القصيبي، (**العصفورية**)، دار الساقي، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.

فؤاد صادق مفتي، (**لحظة ضعف**)، تهامة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

قماشة العليان، (**عيون قذرة**)، دار الكفاح، الدمام، ١٤٣٠هـ.

محمد عبده يماني، (**فتاة من حائل**)، طبعة المؤلف، توزيع مكتبة تهامة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

محمد عبده يماني، (**مشرّد بلا خطيئة**)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

معجب الزهراني، (**رقص**)، دار طوى، لندن، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

منصور الخريجي، (**دروس إضافية**)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

ليلى الأحيدب، (**عيون الثعالب**)، رياض الريس للنشر، بيروت- لبنان، ط١، حزيران/ يونيو، ٢٠٠٩م.

بـ المراجع:

إدوارد سعيد، (**الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق**)، ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.

جراهام إي. فوللر، وإيان أو. ليسر، (**الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة**)، ترجمة شوقي جلال، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

جمال بوطيب، (**نحن والآخر - تجليات جسدانية في الفكرين العربي والغربي**)، مؤسسة التنوخي، آسفي- المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

حسين العودات، (**الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى مطلع القرن العشرين**)، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

الرازي، (**مختار الصحاح**)، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

صالح بريك، (**الكره أو اللاتسامح مع الآخر- منظور نفسي اجتماعي**)، خطوات للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

عبد السلام المسدّي، (**تأملات سياسية- خواطر هادئة في زمن ملتهب**)، دار الكتاب الجديد، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

عبد الله الغذامي، (**الثقافة التلفزيونية**)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

عفيف فراج، (**ثنائية شرق- غرب في مرايا هيغل، غارودي، راسل، إدوارد سعيد، بول كنيدي، جليبير الأشقر**) دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

مجموعة باحثين، تحرير الطاهر لبيب، (**صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه**)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

محمد نور الدين أفاية، (**الغرب في المتخيل العربي**)، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ١٩٩٦م.

نادي الباحة الأدبي، (**تمثيلات الآخر في الرواية العربية**)، النادي الأدبي بمنطقة الباحة، توزيع مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.